د . خليل احمد خليل

بير العصافير

« الى بيروت ١٩٧٥ »

خرج الليل وعاد سريعا
يبرق للاشجار سريعا
ـ يشعر ان الضوء كتابه
يشعر ان العين فراشه
يشعر ان الليل خرافه ـ
اصبح في منتصفه الجسر صريعا
اصبحت اغني في واد ، حنجرتي اضحت نبعا موسيقى
الوانا ، وترا مقطوعا
بين الصوت الاتي والصوت الراحل
اصبحت اغني مغناة الليل الشاعر
(اذكر ان جفوني احترقت وقت الحب وذابت
لكن فراشة هذا الليل الشاعر
ضحكت من صوت الناي وذابت)
ما بال الوردة ، هذي الليلة ،
لا تقطر دمعا ، لا تحضن عشبا ، لا تغفو
ما بالي ، والناس اتوني بالوردة ؟

ـ ١ ـ

ورق الاعدام على طاولة الليل يناغي الرأس ويبكي
يتحلل في مختبر الاعمار ، يواسي الافاق المشنوقة
يضحك من صبر القوم ويضحك من ضجر الخنجر في الرقبة
ورق الاعدام يغني في قصر الاحكام السرية
يصعد رأس مثل النجمة فوق جفون الماء ويحكى
تنفتح الاذان ، الاعماق ، الافواه وتحكى
صار الحكى رواية شعب تحكى للرايح والاتي ،
تحكى ، تمتلىء الصفحات ، تفيض العين دموعا
يدرج نهر ، نهران ، ثلاثة
يبنى سد ، سدان ، ثلاثة
يحكم جيش ، جيشان ، ثلاثة
ورق الاعدام يسد النهر بجيش من رمل الصحراء :
ابجد . هوز . حطي كلمن . سعفص . قرشت .
قرشت . سعفص . كلمن . حطي . هوز . ابجد .
ماتوا في الحرف الابكم ، ماتوا في الجسد الابكم ، ماتوا في الوهم الاعظم
تخذ . ضدغ . لا شيء عليه . قام الالف الاعظم من بين الاموات
حطي . كلمن حطي . كلمن . حطي .
قام الالف الاعظم ، قام الالف ، الالف ، الالف
هزي وجهك يا ناقة ابجد . ارخي حبل الالف قليلا
نامي كالخيمة في حضن الشعر ، وهاتي . نرقص رقص المعول !
تخجل صاحبتي في عنق الموت ، وتغدو رسنا للجوع ، لجاما
يستغني الجوعى في سجن الهبل الاول
وتغن الطرف ، كأن لسان السجن نبى
ترجف تحت الغيظ ، تغنى من وجع ، تغفو ، وتغض كتاب العين
وتغفو . . . ارخي حبل النوم قليلا . . ره حلما يشعل عينيك
ره نهرا يجذبك اليه ويمضي
تاج من ورق الاعدام وقتل الجوعى . من قهر النسوة ،
لص يسرق افواه الارض ، يسد سماء النور ، ليبقى
رأسا فوق رؤوس ، فوق قبور ، فوق الايدي والاعين ،
هل هذا تاجك ، ثوبك ، بعد الصبر وبعد اليأس ؟
تخجل صاحبتي من صنم يلجمها ، تخجل من جسد اخر يدنو ،
يتعطفها وهي العذراء الحامل شمسا ، ويطرزها وشماً ،
صاحبتي تخجل
يدنو ، تخجل ، يدنو ، تخجل ، ويطرزها وشما ، تخجل وتهز
الالف الباقي من اسم الامة
تكبر صاحبتي ، يدنو منها الوسواس
تهز الحبل وتقطع ظهر الهبل المستلقى فوق تلال اللحم
وتطفىء عين العسكر

ـ ٢ ـ

سقطت من نافذة الورد في شوارع البراءة
ركضت مع بنادقي وكتبي ، حبرت وجهي بالبحار كلها
زورقت احلامي ومزقت عيني على مرآة الجبل المشنوق
هللت في هلال حواء ، ولم اجد آدم في البستان
ناديته في غرفة جائعة ، ودعته ، لا اعرفه
ودعته ولم اره . قالوا : اتاه الموت قبلها
فأنجبتني أنجبت قبائل الاحباب والاشعار والطيور
واغدقت بحارها على دم يفيض حربا ، ثعلبا ومحكمة
شهدت اني قاتل الاوراق بالكلام
قاتل الاوهام بالاوراق ،
اشتقت في سجني الى حواء
رأيتها في الكازينو ، ترقص يالبنان ما احلاك ، ما احلى !
هربت منها ، هذه امي لا ، ولا قرينتي ، ولا . .

نهدت من شفاه الوردة البيضاء علني احيا ، ولو ...
جعلت من مياهها وجنسها الحياة لا تموت
اين هي ؟ باكية على يدي ـ وهي يدي ـ رأيتها تلبس
ثـوب الحب
تخرج من مقصوفة هناك ، تحت النهر ، في اعماقها
تلبس ثوب الحب ، ثوب الله ، ثوب الادم الذي اشتهيت،
تنظرني بدهشة نبية ، نبية ..

.. علمني التضاد ان اكون سنبلة
وبيدرا ، ومدرجا لطائرات الحرب والرحيل
فطرت من مطار صدرها ، وهي السفينة بعد نوح ،
وانا في فمها الرصاصة .
حلقت فوق قبرص اليونان والاتراك والعرب
أعجبني في الحرب كيف تلتظي النيران في حديقة المياه
وكيف يحيا الموت في اعناقنا كأنه اشتهاء
اعجبني موتي يطير حاملا رسالة ومبخرة
ويفقس الامواج في عين التراب
تغرغر الماء ، ولاح لي لبنان والزوارق المحترقة
واودعت صور بيوتها المتهدمة
كأنها عيون بحر ، او قصيدة ، او ارض
واغلقت بالنار والمطاط والرجال
دروبها الى العواصم الجرباء
واقفلت بحارها . كأنها الاسكندر لا يبتغي سواها
كأنما الموت على أجفانها لا يبتغي سواها

وحدقت قانا ـ يسوع مرّ من هنا ـ وسقطت قنبلة على
جسده ، الكنيسة الخضراء
والتمعت زبقين ، صديقين ،
مخيمات الحب ، والقرى ،
عاد يسوع وحده من بحر صور ، ليله مضاء
ودار في شوارع المدينة الموردة
ضاع على جدرانها بين الشعارات وبين السمك الصغير
ـ وحين اودعوه سجنه بتهمة المجيء
بكي يسوع ، لم يناد أحداً ، هذا زمان الصمت
وآثر الحب على الخطيئة
جعله موطنه ، جعلني شاهده في الماء ـ
وفي المساء اخرجوه حتى يبرىء الاطفال في الجنوب
فسار في ملالة تفرق الجموع ،
هنا بكى يسوع ، لم يناد احدا ، هذا زمان الصمت
والملالة الخطيئة .

عاودت قلبي ، زارني القتيل ، زارني الحبيب والصحابة
واخلفوا آياتهم على دمي ، حين اتى عليّ
بكوا مع التراب تحت « الشفرة المسممة »
تحت قنديل الفوسفور والنابلم
واضرموا النيران في عباءة الملوك والشيوخ
وقهقه النفط على اعتاب أمريكا وأوروبا
وفاض الخير من كل مكان
ـ هكذا احببت ان احكي الحكاية ـ
قالوا لهم : يا من تنامون على السبائك المذهبة
الم تروا الى الفانتوم تشوي شعبكم
الم تروا الى الحداد في بلادكم وارضكم
واختنق الكلام في مجلسهم حين اتى علي
كأنه يعيش كربلاءهم في آخر الجنوب
وحدق الحسين ، طأطأ الملوك والشيوخ رأسهم
وسقطت اخبارهم :
« اجتمع الملوك والشيوخ
وقرروا ان يذبحوا آمالكم على المدى الطويل
فانتبهوا ، انتبهوا ، انتبهوا » ،
هنا بكى الحسين ، اعطى رأسه للناس في الجنوب
واحتدمت تظاهرات الجوع والحرمان
احتدمت امواج صور ، غردت بنادق الشباب
ركضت مع بنادقي وكتبي ، حبرت وجهي بالدماء كلها
ولم تزل حواء مثل الارض تطعم الحروب والحضور
وآدم المسكين تحت الماء ناظرا ، منتظرا
لعله يأتيه ، قبل الساعة ، الرصاص والرفيق !

ـ ٣ ـ

تغور دموع الصليب ، تغور يداك ، السماء
وعيناك غور كخط الرمال ، كريح على خارطات الوعود
تعودين غابا ـ كما كنت يوما ، كما كنت بحرا ، كما
كانت الامنيات جنينا ، وكان الضياء
على مفرق الله حبا ، وكان الشتاء
على مفرق الارض عشبا ، وكان الطريق
مروجا ونهرا وبعض الكلام .

عرجت اليك براقا ، سحابا ، غضبت
تهجـأ في راحتيك السلام وشيء تركت صداه
فصار يناغي ، يكاغي ، يدغدغ لحم التراب
يمر لطيفا كنار ، يمر جريحا ، شهيدا ، غريبا ،يمر ويبقى

يفاجيء سيف الحقول ، يقاتل حتى ، وحتى ..
ويدرك وجهك وجهي كما في مرايا البحار ، مرايا المواني
ويعصف نهر من الناس ، يعصف نهر من الموت في الحب
يعصف شعر الصبايا على غابة الماء ، يبتلّ بالصوت
يأتي طريا من الكهف حيث تراءى لك الناس
آلهة ، انبياء وسحرا ، وحيث بكيت من الوحي
آياتك الداميات ، العذارى ، وحيث حملت الزمان
صليبا ، حملت الصليب زمانا ، حملت حقول الجياع
وقلبت في فيزياء الجموع لهيباً ، وكنت رمادا
فلم تولد الارض فيك ، ولم ..
ولكن شيئا اتاك على بئر زمزم
فصرت رغيفا
وصار الفقير يحج اليك ليشقى
وصار الفناء اليك صلاة وبعض الدعاء المرنم .
ويوم اتاك الكلام وحيدا ، ودمدمت شعرا
على رئة الهاربين في الارض خوفا ووجدا
على رئة الهاربين عينا وقلبا
كتبت سقوط الشوارع فوق رؤوس الملوك
كتبت عبور الشباب الى جنة الوهم
حيث الملائك موج وسحر
وحيث القناديل تبكي لقلة وهج العيون
وغنيت زهدا ، فما حرك الميتون سكونا
ولا حرك الطيبون سكونا
ولا زغرد الاقحوان الزمان
وظل نداء السماء غريبا على غرفتي الساهرة
ودار الحديث شتاء وصيفا ، ودارت فصول الدماء
شتاء وصيفا ، وفاحت زنابق صدرك
فاحت زنابق عينيك
فاحت جزائر وعد الحبيب ،

تخبأت حين أتاك العصافير من مهجة النبع
حين رآك الصليب الوحيد وحيدة نار ، رآك
وتبنين بيتا من المرمر ـ الارجوان ـ اليواقيت
بيتا من النهد يثغو وبيتا من الماء يهمو
وبيتا من التين والداليات ـ
توضات من بئر قلبي ، توضأت من ماء نبعي
رآك وحيدة نار ، فصلى على جمرة قانية
تهيمين فوق البنفسج والآس واللؤلؤ القرمزي
ولما ركعت ، توضأ حتى يقيم صلاة الحبيب
على عشبة طاهرة ـ
تخبأت بين وضوء اليدين ، وصليت ركعة واحدة
وصارت مياه الصلاة سقاء ، وامطرت الخابية :
هنا شاح وجهك ـ كيف خجلت ؟
الم تجعلي الغاب مهدا وكل الجبال طرائد ؟
الم تهمسي في اذن الليل نجما وفي اذن البحر ريحا ؟
الم تكتبي فوق كتاب الزواج طلاقا
وفوق كتاب الطلاق زواجا
وفوق الخطايا سماء وماء وماء وماء ؟
قرأت ذنوب المواشي ، ذنوب الليالي التي أولمت جسدا
اظلمت قربة للحبيب ، وباضت نسورا
ودبجت في حلك الوجه نورا
وخفضت موت الدموع

الم يأتك في العصور الخوالي رماح تشق الطريقا
وتكوى ثغور العناقيد ، تبكي ـ فراقا ـ علينا ؟
وحين التقينا هدوءا ونوما ، تكفنت بالجوع ، جعنا معا
ومن قفص في القلب صار العصافير رفا
وصرت مناقيدها
وها انت بعد الوداع الطويل تذوبين في فجوة الانتظار
كأن قليلا من الحب يكفي ،
قليلا من الوعد يكفي ،
قليلا من الاحتضـــار .

« بيروت ـ المساء »

١١ ايار ١٩٧٦